المملكة المغربية

جامعة ابن طفيل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

القنيطرة

المسلك: الدراسات العربية

الماستر: النقد المعاصر:

قضايا ورؤى

الفصل: الثاني

عرض حول موضوع:

دراسة نقدية لرواية سجن العمر توفيق الحكيم.

من إنجاز الطلبة الباحثين:

أسامة الكبز

يونس بوخبزة

العربي بنسماحية

عبد الفتاح الضعيفي

تحت إشراف الأستاذ:

ذ هشام بن الهاشمي

السنة الجامعية: 2019/2020

تصميم العرض:

-مقدمة.

الفصل الأول: مقاربة التحليل النفسي لسيرة سجن العمر.

المبحث الأول: افرويد واللاشعور الفردي.

المبحث الثاني: اللاشعور الجمعي كارل غوستاف يونج.

الفصل الثاني: مقاربة النقد النفسي، لا شعور النص في سجن العمر.

المبحث الأول: شارل مورون والأسطورة الشخصية للمؤلف.

المبحث الثاني: تجليات لا شعور النص عند بيلمان نويل.

خاتمة.

مقدمة.

يعتبر المنهج النفسي من المناهج التي تركز أثناء تحليلها على الجوانب اللاشعورية الغامضة عند المؤلف أو في النص؛ وقد قطع هذا المنهج في إطار تطوره مرحلتين أساسيتين: مرحلة التحليل النفسي قادها افرويد وتلامذته أدلر، كارل غوستاف يونج، وهي مرحلة أولت الاهتمام في التحليل النفسي للأدب بالمؤلف ودراسة العقد والعاهات التي يعاني منها، وكذلك تحليل اللاشعور الجمعي الذي أثر في تكوينه النفسي، أما المرحلة الثانية؛ مرحلة النقد النفسي للأدب فقد ركزت على النص أكثر من المؤلف وحاولت أن تجرد لنا اللاوعي النصي/ لا شعور النص سواء من خلال الأسطورة الشخصية للمؤلف مع شارل مورون، أو البياضات بالنسبة لجان بيلمان نويل.

وعلى ضوء المنهج النفسي سنحاول تحليل سيرة توفيق الحكيم الذاتية الموسومة ب "سجن العمر"، انطلاقا من مرحلة التحليل النفسي مع افرويد وكارل غوستاف يونج، ومورون وبيلمان نويل في مرحلة النقد النفسي.

الفصل الأول: مقاربة التحليل النفسي لسيرة سجن العمر.

المبحث الأول: افرويد واللاشعور الفردي.

لقد أسس فرويد عقدة أوديب التي تعتبر بالنسبة له بداية الأخلاق والقانون، وسائر أشكال السلطة الدينية والاجتماعية، وهي بداية إنتاج ذوات كالجنسين (الذكر والانثى) وهي أيضا إحدى الأبواب التي تنقل الذات من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع.[1]

كما شكلت عقدة أوديب في نظرية فرويد الاختلافات الجوهرية للظواهر النفسية، ومن خلالها حاول فرويد أن يدرس أعماق الشخصيات الإبداعية، ولقد توصل إلى أن النص الأدبي أو أعمال المبدع شأنها شأن الحلم، فالحلقة التي تربط بين العمل الأدبي والحلم تستمد من خلال النوازع الجنسية سواء كانت أوديبية أو إلكتروية مكبوتة في اللاشعور في شكل

[1] أحمد حيدوس، التحليل النفسي في النقد العربي الحديث، ص 25.

رموز إبداعية فالعمل الفني والحلم ينتجان من الرغبات الجنسية المكبوتة في اللاشعور، وتجد هذه الرغبات طريقها في إبداع أعمال أدبية ساحرة أو في أحلام تتراءى ما كان له أن يحققها على أرض الواقع.[1]

ومن خلال العقد النفسية التي اعتمد فرويد في نظرياته وتفسير الأحلام التي ردها إلى الرغبات الجنسية، والتي فسربها بالظاهرة الأدبية. يتبين أن للتحليل النفسي علاقة وطيدة بالمثلث الأوديبي لرواية سجن العمر، فهو مثلث متساوي الساقين قاعدته الأم، وساقاه الأب والابن، وما يساوي بينهما هو معاناتهما المشتركة من اضطهاد القاعدة. من الصفحات الأولى يطالعنا وصف للأم يحظر إلى الأدهان حالا قسمات الأم "الفولوسية" المتعارف عليها في أدبيات التحليل النفسي {طبع حاد، عناد وإصرار، ذكاء فطري...} عرفت عنها قوة شخصيتها منذ صغرها، كانت ثائرة في وجه الحكيم، معاملتها له امتازت بالعنف والقسوة، فحرمته من أكل الفاكهة أو الحلوى فتأخذها لنفسها، ويوجز الحكيم الصورة الاستبدادية لهذه الأم الحديدية فيقول:" ما من شيء كان يقف أمام إرادة والدتي، أذ طلبت شيئا وصممت عليه، فلابد أن تناله... وإن لها مقدرة عجيبة على إخضاع جميع من معها بإرادتها، كان هذا شأنها مع أمها وزوج أمها وأولاده جميعا، ثم زوجها هي فيما بعد، لم يقف أحد في وجهها إلا أختها لهذا خاصمتها وعادتها طوال العمر.[2]

ورسم الحكيم صورة إيجابية لوالده، إذ يقول: "كان والذي رحيما إنسانيا تحث مظهر جاد من الرزانة والاتزان، لم يكن فياضا بالعاطفة جياشا بالشعور المتفجر كزبد البحر العاصف مثل والدتي... فقد كانت له القدرة على أن يفصل عاطفته عن عقله، كان كل شيء عنده حتى أحب الأشياء وأقدسها يخضع لميزان عقله وفحصه ويعطيه ماله وما عليه بالحق والعدل على عكس والدتي التي تملكها العاطفة ولا تعرف الفحص ولا الميزان، فهي الانطلاق والإغراق، إما حب فياض وإما كره ماحق، لا وسط عندها ولا اعتدال.[3]

[1] غزالدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص 40.
[2] توفيق الحكيم، سجن العمر، دار الشروق، ص 65.
[3] نفسه، ص 81.

أما الشخصية التي نسجت الأحداث وتفاصيلها وكشفت عن ألامها وآمالها، وأظهرت ميولها الفنية والأدبية والموسيقية، فتمثلت بتوفيق الحكيم، وقد عمد المؤلف برسم صورته من خلال طفولته، ومراحل تعليمه، والأحداث التي عصفت به، والعناصر التي تكلفت بتكوين صيغته، ومحطات فشله ونجاحه.

وأول الخيوط التي اسهمت في نسيج شخصية المرض الذي لازمه في طفولته ملازمة رفيق السوء، ومن الأمراض العجيبة التي كانت تلازمه الحمى، فاذا ما رأى جنازة أصيب بها ولزم الفراش ثلاثة أيام، دون أن يعرف أحد سبب لذلك، أما هو فيرد ذلك الصراع الذي يعيشه إلى قوة الحياة وقوة الموت، وأشار كذلك إلى مرض القلق الذي أصابه طيلة حياته، فإذا لم يجد ما يبرز قلقه ظهر القلق فجأة.

كما كشف الحكيم عن بداية شعوره بالفن، في سن العاشرة، كان ذلك عندما أحضروا له شيخا يحفظه القرآن، فسمع عبارات الثناء ليشعر لأول مرة بما يشبه الشعور باللذة الفنية.[1] وإن يكن هذا التناقض هو محرك الأشياء في الطبيعة كما في التاريخ، فإنه في المثلث الأوديبي شرط اشتغاله، وما سجن العمر، من هذا المنظور إلا حلبة صراع بين الصور الأبوية والصور الأموية، أذ ليس بجامع بين ذينك الإنسانيين اللذين قيض لهما أن يكونا لسجن عمره أبا وأما سوى تناقضهما، والحال أن الحلبة في هذا الصراع المزمن كانت للأم دوما، ولقد رأينا كيف تقدم لنا سجن العمر صورة أشد مرارة لاستسلام الأب الشاعر، وهو استسلام يصل إلى درجة الخصاء بكل ما في الكلمة من معنى، فذلك الأب ذو الطبيعة الشعرية، الذي أحب العلم والتنور والجهاد، جهاده المستميت في سبيل الحصول على التعليم، وخاض غمار معارك متواصلة حتى أمكن له، بإصراره وتشبته أن يصل إلى آخر الشوط ويتخرج من مدرسة الحقوق، ذلك الأب الذي انتمى إلى جيش مدهش في رجولته يستسلم أمام زوجته، أذ يقول الحكيم:"... ما الذي حدث له بالضبط؟ أهو مجرد الزواج وأعبائه؟ من والدتي بشخصيتها القوية الثائرة العنيفة المسيطرة، وجهت مصير زوجها كما أرادت هي، فحصرت نشاطه داخل الإطار العائلي المادي وحده."[2]

[1] توفيق الحكيم، سجن العمر، دار الشروق، ص 83.
[2] نفسه، ص 12.

إن الاضطهاد الفعلي أو المتوهم بما يستتبعه من تعاطف، يمهد الطريق أمام اشتغال إوالية التماهي التي يمكن بدونها للعبة الحب والكره أن تلعب ضمن نطاق المثلث الأوديبي ولكن حتى يتماشى الابن مع الأب، لا يكفي أن يتعاطف معه، بل لابد أيضا من أن يتساوى وإياه في المعاناة من الاضطهاد، ثم إن توفيق الحكيم لم يعش اضطهاد لأمه له ولأبيه بالتماهي معه في التوهم وفي اللازمن الذكري فحسب، بل عاشه أيضا على صعيد الحياة اليومية والعملية. ذلك أنه كما تماهى مع أبيه، تماهى بين أخيه وأمه، فالتناقض الذي ألح أشد إلحاح على احتدامه بين أبيه وأمه في شخصيتهما وطباعهما أسقطه على العلاقة التي كانت تجمع أو تفصل بينه وبين أخيه، فذلك الأخ الذي سماه والده زهير، تيمنا باسم الشاعر الجاهلي شاءت سخرية القدر ان يكون من أبعد أهل الأرض عن الشعر وسيرته، لم ينطق يوما ولو على سبيل المصادفة بيت شعري واحد، فهوايته هي الرماية والصيد والسباحة والرقص.[1]

ويؤكد الحكيم مرارا وتكرارا على أن انتماء أخيه كان لأمه، على عكسه هو الذي كان انتماؤه لأبيه، كان أخي منذ طفولته عنيفا جريئا، ولعله ورث ذلك عن والدته ميراثا كاملا... أما أنا فكنت كلما كبرت ملت إلى الهدوء والتأمل واتخذت الكثير من سمات أبي.[2]

إن السجن هو الكلمة الأكثر ترددا وتوترا في سجن العمر، ذلك أن سجن الام الفالوسية التي تسكن في اللاشعور الطفل، لا يسري عليه قانون التقادم ولا يعرف الشيخوخة، بل على العكس فحتى بعد أن يشيخ الطفل فإنه يرتد على الدوام طفلا في مواجهة الشبح، وهذه الطفولة المغمورة بخوف الأم هي السجن الحقيقي والأبدي، فالحكيم ظل طفلا حتى في شيخوخته، لأنه عاش حياته كلها وهو يحاول عبثا أن ينفلت من سجن الأم، لكن لا يخفى على الجميع بأن هذه الأخيرة، كانت قد أسهمت في إثارة النزعة الفنية للحكيم، حيث كانت تسرد له ما تقرأه من الأدب العربي كقصص ألف ليلة وليلة وغيرها، وهو يعترف بفضل والدته في هذا الجانب إذ يقول: "كان لها ولاشك فضل كبير لوالدتي لا ينكر في تفتيق خيالي منذ الصغر."[3]

---

[1] توفيق الحكيم، سجن العمر، دار الشرق، ص 24.
[2] نفسه، ص 29
[3] نفسه، ص 89.

لعل سجن العمر "الرواية" التي عرض فيها الحكيم تفاصيل حياته حتى انتهاء مرحلة دراسته بباريس، وكشف عن أسرته من حيث أصولها، وحياة أفرادها وعن طبيعته المكونة من عناصر متناقضة. مما جعله يعيش حياة القلق والتماهي واللاشعور، أما سبب ذلك فيعيده إلى والدته وما بينهما من تضاد في الصفات كما أسلفنا الذكر، هذا ما جعلنا نظهر شخصيتي الوالدين حتى نتمكن من معرفة مدى هذا التناقض بينهما، وفي ذلك يقول الحكيم:" فوالدي أورثني حب الأدب، ووالدتي التي أورثتني لإرادة بإرادتها دون رغباتها الفنية.[1]

وهنا يرى الحكيم أنه سجين في الموروث حر في المكتسب ومن قرأ رواية سجن العمر قراءة فاحصة دقيقة، يرى أنه في اللحظة التي اكتمل فيها تماهي الابن مع الأب من خلال استدماج واقعة الاضطهاد الفعلي أو المتوهم، تحدد أيضا عن طريق الخلاص من السجن العمر، فالابن لابد أن يعيد للأب رجولته المخصية، ولا سبيل إلى هذا أن يكون ذلك الفنان الذي ما استطاع الأب أن يكونه، وطريق الخلاص الفني هذا الذي أسماه الحكيم قدره الذي لا يستطيع أن يتخذ طريقا غيره في الحياة، هو بهذا المعنى سجن عمر آخر لا يملك منه فكاكا. الرغبة المكبوتة عند الأباء ربما كانت هي التي يورثنها ولو أن والدي تمكن من إفراغ كل ما في نفسه من رغبات وميول أدبية لأعفاني أنا وحررني من نزعة الأدب لكنت أنا قد انصرفت طليقا إلى شيء آخر... فما أنا إلا سجين رغبته التي لم يحققها.[2]

المبحث الثاني: اللاشعور الجمعي كارل كوستاف يونج:

سننطلق من خلال التقسيم الذي جاء في الشق النظري للمنهج النفسي، وسنحاول تطبيق هذه المفاهيم النقدية التي جاءت مع كارل كوستاف يونج على رواية توفيق الحكيم "سجن العمر" فبالنسبة للإبداع عند يونج أو الخلق الفني ثم تقسيمه إلى قسمين:

قسم أطلق عليه **بالإبداع السيكولوجي،** فهذا القسم يتعامل مع الدروس المستفادة من الحياة والصدمات العاطفية ومع معاناة الهوى وأزمات المصير الإنساني عموما، ومن أمثلة هذه الأعمال الإبداعية السيكولوجية الروايات المعالجة لشؤون الحب والبيئة والعائلة والمجتمع

[1] توفيق الحكيم، سجن العمر، دار الشروق، ص 93.
[2] نفسه، ص 81.

...إلخ. وقسم آخر أطلق عليه **بالإبداع الرؤيوي**، هذا النوع الإبداعي لا يذكرنا بشيء من حياتنا اليومية، بل بالأحلام ومخاوف الليل.

وتندرج رواية توفيق الحكيم "سجن العمر" ضمن الأعمال الإبداعية السيكولوجية المهتمة بأفراد العائلة ومشاكل المجتمع، وهي عبارة عن سيرة ذاتية في أدب توفيق الحكيم، سرد فيها تاريخ حياته منذ الولادة إلى تلك اللحظة التي عاد فيها من فرنسا دون تحقيق هدفه يقول توفيق في مقدمة روايته:" هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة...إنها تحليل وتفسير لحياة... إني أرفع فيها الغطاء عن جهازي الآدمي لأفحص تركيب ذلك(المحرك) الذي نسميه الطبيعة أو الطبع... هذا المحرك المتحكم في قدرتي، الموجه لمصيري...من أي شيء صنع؟...من أي الأجزاء شكل وركب؟".[1]

في هذه الرواية نجد توصيفا من الحكيم الأب في دفتره الخاص إلى الحكيم الابن، وتعتبر وثيقة تاريخية لسيرة المبدع، فتوفيق الحكيم يصف بشكل دقيق ومفصل تفاصيل حياته ما قبل الولادة وما بعدها، إلى أن بدأ اهتمامه بالجمال الفني.

يقول توفيق الحكيم في هذا الإطار:" لست أذكر بالضبط متى كان أول انفعال لي بالجمال الفني؟ لعل أول مظهر من مظاهره اتخذ صورة التلاوة القرآنية الجميلة... أحضروا لي شيخا يحفظني القرآن ويعلمني مبادئ القراءة والكتابة... كان ذلك الشيخ الذي أحضروه جميل الصوت..."[2]

كما هو معلوم عند الجميع بأن كارل كوستاف يونج هو تلميذ لفرويد، وقد وافقه على مبدأ اللاشعور الفردي أو الشخصي، أو الخفاية الخاصة، وقد أضاف نوعا آخر سماه "باللاشعور الجمعي" أو "أو الخفاية العامة ويعتبر هذا النوع المنبع الأساس للأعمال الأدبية والفنية. فاللاشعور الجمعي جماع تجارب الإنسانية.

ويتجلى هذا اللاشعور الجمعي في رواية توفيق الحكيم "سجن العمر" في هذا المقطع، يقول:" ولست أعرف شيئا بالطبع عن اللحظة التي ولدت فيها... وهذا من سوء حظي؛ بل

[1] توفيق الحكيم، سجن العمر، دار الشروق، ص 7.
[2] نفسه، ص63.

من سوء حظ الجميع البشر جميعا أن نولد في غيبوبة تامة من عقولنا. فكل عضو من أعضائنا يتحرك حين نولد، إلا ذلك الجزء منا الذي ندرك به الحياة التي هبطنا إليها. ترى ماذا كان يحدث لو أننا واجهنا الحياة بعقول مدركة منذ اللحظة الأولى؟ ...كان يحدث العجب... أعجوبة الحياة في انكشافها المفاجئ أمام القادم من عولم الظلام والوحدة والعدم"[1]

هذا المقطع من الرواية يعبر عن اللاوعي الجماعي عند توفيق الحكيم وعند جميع البشر فافي اللحظة التي نولد فيها؛ نولد في غيبوبة تامة من عقولنا ولا ندرك ما يقع حولنا.

الفصل الثاني: مقاربة النقد النفسي ولا شعور النص في سجن العمر.

المبحث الأول: شارل مورون والأسطورة الشخصية للمؤلف.

يرى شارل مورون أنه لابد من الانطلاق أثناء القيام بالتحليل من لا وعي النص باعتباره المنطلق الأساسي لأن دراسة لاوعي الكاتب هي مرحلة لاحقة لتأكيد ما تم التوصل إليه في القراءة الأولى للنص.[2]

فهنا يوضح لنا شارل مورون الطريقة الكفيلة لإنجاز دراسة نقدية نفسية لنص ما، حيث يجب الانطلاق من النص دون الالتفات إلى أي عنصر خارجي بما في ذلك حياة الكاتب وظروفه النفسية، هذا الإجراء الذي اقترحه شارل مورون يجعلنا نؤمن بأنه قام بتطعيم المنهج النفسي بآليات إجرائية وتحليلية استنبثها من مناهج أخرى، ولعل أقرب هذه المناهج التي أخذ عنها بعض آليات التحليل نجد المنهج البنيوي الذي يركز على بنية النص دون الالتفات إلى شيء غيره.

وكي نفسر أكثر لا بد لنا من الاستطراد من خلال ما جاء به شارل مورون في هذا الصدد فهو يعتبر " أن كل نتاج أدبي يحتوي على مجموعة من الصور الخاصة تتخذ غالبا مظهرا دراميا وتتكرر في مجموع النتاج من خلال أشكال متباينة من الصور لكنها تحمل نفس الخصائص الجوهرية للصورة الأولى المحركة ويسمي ذلك الأسطورة الشخصية للكاتب،

---

[1] توفيق الحكيم، سجن العمر، مرجع سابق، ص 11.

[2] لاشعور النص في استراتيجيات القراءة، مجلة قراءات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، د/ جمال ولد الخليل، جامعة نواكشوط، ص62.

ويعرفها بأنها استيهام مهيمن على الكاتب يتمظهر من خلال صورة مهيمنة على أعماله وتكون دائما لهذا الاستيهام علاقة بلاوعي الكاتب، وهو ما يستدعي البحث في حياته الشخصية للتأكد مما توصلت إليه القراءة المباشرة للنصوص."[1]

فالنقد النفسي هنا عند شارل مورون يقتضي الانطلاق من النص عبر النفاذ إلى مساماته من خلال العناصر المتكررة والصور التي يغلب عليها طابع الدرامية والتكرار في مجمل النص، هذه العناصر تعتبر الركيزة الأولى التي يستند عليها لا وعي النص عند مورون؛ والتي يطلق عليها تسمية الأسطورة الشخصية للكاتب، فهي تظل لاصيقة به ينحتها كل مرة فهي المهيمنة داخل النص، ومن خلال هذه العملية يتم اللجوء إلى حياة المؤلف والتركيز على هواجسه النفسية، فنجاح العملية- لاوعي النص- يفرض توافقها مع الحياة الشخصية والنفسية للمؤلف وحضورها في النص كانعكاس لتصوراته ومواقفه.

هذه العملية التي صاغها لنا شارل مورون سنقوم بمحاولة إسقاطها على السيرة الذاتية للكاتب توفيق الحكيم الموسومة ب "سجن العمر"، ففي بادئ الأمر سنقوم بالاستعانة بتلك الاستعارات والعناصر الدائمة التكرر والوجود، أو ما يصطلح عليها من طرف شارل مورون الأسطورة الشخصية للمؤلف، وبعد ذلك سنحاول رؤية تجسيد هذه المكونات في حياة المؤلف الشخصية والنفسية.

كما سنبرز تقييمنا حول مدى نجاعة شارل مورون من خلال هذه العملية في الوصول إلى كنه الأعمال الأدبية، ومدى أهمية الانطلاق من النص في استخراج واستنطاق نفسية الكاتب. إن توفيق الحكيم منذ مستهل سيرته وهو يكرر حدث ولادته ويتحدث عنه بشكل مفصل باعتباره حدثا مهما لا يجب التنازل عنه أو إهماله " لنبدأ إذن من البداية: من يوم وجدت على هذه الأرض كما يوجد كل مخلوق حي، بالميلاد من أب وأم"[2].

هذا الحدث-حدث الولادة -هو عنصر بيولوجي فالإنسانية دائما ما تشهد ولادات متعددة، هذه الحالة هي من تمنح للإنسان صفة الوجود والكينونة؛ فتوفيق الحكيم لا يعتبر من هذا التاريخ

[1] لاشعور النص في استراتيجيات القراءة، مجلة قراءات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، د/ جمال ولد الخليل، جامعة نواكشوط، ص63.

[2] سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، الطبعة الأولى 2003، ص 7.

الذي خرج فيه إلى الوجود مجرد رقم يبث في بطاقة الفرد الشخصية، أو أنه يجب أن يظل فقط مرهونا بذكرى سنوية وعيد ميلاد، بل يعتبر منه محطة ولحظة للانطلاق في مغامرة صعبة وطاحنة ليس من الهين الخروج منها، فهو كما لو كان سجينا منقادا إلى زنزانته عند أول وهلة تطأ رجله بوابة السجن، فلحظة ولادته وخروجه إلى الكون هي بداية ضيقه النفسي وبداية السجن الوجودي واللاشعوري لديه، هذا السجن وانعدام الحرية ينطلق من ماذا؟ فتوفيق الحكيم من خلال أنساقه المتكررة يجيبنا عنه، فالحرية تنعدم والاختيار لا يتاح أمامنا عندما يتعلق الأمر بأسباب وجودنا في الحياة، وهنا الأمر يتعلق باختيارنا لأبينا وأمنا.

" وما دمنا لا نستطيع أن نختار والدينا ... ما دمنا لا نستطيع أن نختار الأجزاء التي منها نصنع، فلنفحص إذن هذه الأجزاء التي منها تكونا فحصا دقيقا".[1]

هذه الأشياء المتعلقة بأصله وبولادته من أم وأب يكررها توفيق الحكيم بشكل لافت ليفسر أن عجزنا عن اختيار آبائنا وأمهاتنا يساوي عجزنا عن اختيار ذواتنا وبناء طبائعنا وأنفسنا "لا بد إذن من الشجاعة والصراحة لنعرف على الأقل شيئا عن تركيب طبعنا هذا الطبع الذي يسجننا طول العمر".[2] ومن هذه الزاوية يحاول توفيق الحكيم شق طريق من أجل التعرف على ذاته ينبني على أبويه، فدراسة حالة ونفسية أبويه بإمكانها أن تحدد له الوجهة التي سارت عليها طبيعته وأحواله النفسية التي سجن فيها طوال حياته كما يقول.

ومن بين العناصر التي ذكرت بشكل مستطيل في النص نجد حياة أمه ووالده وأصل كليهما، فأمه تنحدر من أصل تركي، بينما جاء في النص أن والده ينتمي إلى الطبقة الفلاحة في صعيد مصر " كانت أسرة والدتي من أهل البحر ممن أطلق عليهم إسم البوغازية ويظهر أن أصل هذه الأسرة من الترك أو الفرس أو ألبانيا... سحنة والدي الفلاح القح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بأكمله"[3]، هذا الاختلاف في الأصول بين أمه ووالده سيكون له دور فاعل في بناء شخصية الإبن توفيق، فأمه كما ذكر من أصول غنية وتنتمي إلى عائلة حضرية

[1] سجن العمر، توفيق الحكيم، مرجع سابق، ص 7.
[2] نفسه، ص 7.
[3] نفسه، ص14.

من الترك الذين انتقلوا إلى مصر، في حين أن والده ينتمي في الأصل إلى بيئة فلاحية مصرية فقيرة.

بعد هذه العناصر سوف يركز كذلك على أحداث مهمة في سيرة والدته كان عنوان وأساس تشكل هويتها ونفسيتها الداخلية، والتي تستجلي لنا في النص من خلال حدث وفاة والدها وزواج أمها من زوج خالتها الأرمل، وحرمانها من رؤية والدها وهي التي فارقته في عامها الثالث فقط، " ولبثت عمرها كله ترسم له في مخيلتها صورة الأبطال والأنبياء والقديسين" [1] إن فقدان الأب بالنسبة لأمه كان له وقعا لديها فهي قد لقيت من أمها الدلال حتى أصبحت كل الهدايا الفاخرة تقدم إليها من طرف زوج أمها، كما ساهم هذا العامل في تمكنها من تعلم القراءة والكتابة وهو أمر لم يكن مسموح به للفتاة " لكن هذا الشاب ابن الخالة ظل بأبيه والبنت وأمها حتى سمح له بأن يحضر لها شيخا يحفظها القرآن ويلقنها حروف الهجاء"[2]، أما عندما يركز توفيق الحكيم على والده فهو يجرد مجموعة من الأفكار ويظل يعيدها بشكل مستمر، فكما كان من حال الأم التي عاشت دون أب، فإن والده هو الآخر عاش يتيم الأم في قرية فلاحية من والد فقير، هذا الأخير بحكم محبته للعلم فسح المجال لأبنائه في التعلم وإتمام مراحل دراستهم " كان والدي مع بعض إخوته وأقاربهم وزملائهم ممن نزحوا إلى القاهرة لطلب العلم، يعيشون في سكن واحد ويطبخون لأنفسهم كل أسبوع"[3]، إن نزوح والده إلى الدراسة لم يتأت من فراغ، بل كان من خيرة الطلاب وكان محبا للشعر والفلسفة والفن.

إن تكرار توفيق الحكيم لبعض التفاصيل كان مرده إلى مدى تأثره بها، كان مرده إلى مدى تأثره بها، فاجتماع والديه وزواجهما قد أذهب لديهما ذلك الحس الفني وأبعدهما عما شغفوا به في ماضيهم قبل الزواج، بحيث أصبح اهتمامهم منصب على تربية أبنائهم وتوفير المال من أجل ضمان مستقبل أسرتهم والحفاظ نمط حياتهم الاقتصادي.

وبالأخص والده الذي كان في شبابه وأيام دراسته من بين أولئك المولوعين بالفلسفة والأدب والشعر والفنون، لكنه بعد الزواج والعمل في سلك القضاء طمست شخصيته وتغيرت طباعه

[1] سجن العمر، توفيق الحكيم، مرجع سابق، ص 15.
[2] نفسه، ص 17.
[3] نفسه، ص 26.

كأنها لم تكن مرتسمة عليه يوما " كانت صورة والدي حقا أقرب إلى الإنطفاء، أما تواليفه وتفانينه وفلسفته فإني لأعجب أنها كانت له يوما فإن الأب الذي عرفته كان أبعد الناس عن كل هذه الأوصاف...أترى مسؤوليات القضاء والزواج والأسرة قد حطمت فيه كل شاعرية...واقع حياته العملية والوظيفية والزوجية، ولا علاقة لها بالشعر والفكر والتفنن، ولم أسمع منه قط وصفا أو ذكرا لأيام شبابه تلك، وكأنى به قد نسيها أو تناساها"[1]، إن عجز والده عن الاستمرار في الفن والفلسفة بسبب ظروفه العملية والزوجية وتنقله من ريف إلى ريف ، لم يمنعه من تسريب فكرة الفن إلى ابنه توفيق الذي كان يميل بطبعه إلى والده ويتوافق معه في الكثير من الصفات، على عكس والدته التي لم يكن يميل إليها في شيء بحكم طبيعتها المفطورة على كل ما هو مادي وسعيها المستميت والدائم في الحصول على المال والملذات. هذا الانجذاب إلى الفن ستكون أولى إرهاصاته عند توفيق الحكيم في مرحلته الابتدائية " وقد جذبني علم لم أمارسه من قبل، لكني أحسست أنه قريب من نفسي، إلى تلك النفس التي كان يستهويها شيء بالذات مجهول الكنه لي وقتئذ، عرفت فيما بعد أنه الفن أو النزعة الفنية."[2] وعلى هذه الكيفية زرع حب الفن في نفسية توفيق الحكيم وأصبح شغوفا بالمسرح منذ نعومة أظافره، حيث كان يجتمع برفاقه في إحدى المنازل ويقومون بتأليف مسرحيات وبعد ذلك يؤدون أدوارها بإتقان وتفان، وبعد وصوله إلى القاهرة لإتمام دراسته الثانوية يجد نفسه من جديد بين أحضان المسرح الذي كان في ذلك العهد ما يزال في إطار التشكل داخل القطر المصري. " أما أنا فكنت كغيري من هواة الفن الكثيرين شديد الإعجاب بجورج أبيض...أحفظ صفحات من عطيل وأوديب ولويس الحادي عشر"[3]، فهو من خلال تكراره فكرة حبه المسرح يقدم لنا سيرورة تشكل المسرح في مصر، ففي هذه المرحلة كان يعتمد فقط على ترجمة الأعمال الغربية المشهورة لشكسبير، أو موليير...، أو الاقتباس عنهم ومصرنة أعمالهم لتصل إلى الجمهور المصري وتعالج بعض المشاكل التي كان يتقوقع فيها آنذاك.

وعلى هذا النحو تسير حياة توفيق الحكيم الفنية، والتي آثرها وفضلها على إتمام تعليمه بسلك الدكتوراه عندما رحل إلى فرنسا حيث انكب إلى ارتياد المسارح ليأخذ الأبجديات المسرحية

---

[1] ، سجن العمر، توفيق الحكيم، مرجع سابق، ص 33.
[2] نفسه، ص 69.
[3] نفسه، ص 165.

من ينابيعها الأصل؛ والتي على أساسها وتمكنه منها استطاع أن يخلق مسرحيات عند عودته إلى مصر تتسم بطابع الإبداعية والتجديد بدل الاقتباس كما كان في السابق.

في هذا الإطار قمنا بإجلاء بعض العناصر المتكررة على مستوى الأفكار والتي دلتنا على بعض الجوانب الباطنية من نفسية توفيق الحكيم، وعلى طباعه التي سجن فيها وظلت محاصرة له طوال حياته منذ أن كان طفلا إلى أن صار رجلا متمكنا على المستوى الثقافي وذا رؤية فنية، فطريقة شارل مورون في النقد النفسي إن لم تخبر بالكثير عن نفسية المؤلف، فهي تعتبر آلية منهجية لها إمكاناتها على مستوى الدراسة والتحليل في النقد النفسي.

المبحث الثاني: تجليات لا شعور النص عند بيلمان نويل.

قبل الحديث عن تمثلات اللاشعور النصي في سيرة "توفيق الحكيم"، لابد من وضع فرش معرفي نظري حول مفهوم لاشعور النص مع الناقد "جان بيلمان نويل"، والمقصود بلاشعور النص أن الكاتب عندما يكتب نصه، تنفلت منه بعض الفراغات أو البياضات، ومن خلال هذه الفراغات يمكن أن نحدد لاشعور النص. ويعد هذا الاتجاه من أحدث التوجهات النقدية للمنهج النفسي التي اتجهت نحو دراسة النص وعدم المبالاة بصاحبه، ويذهب "حميد الحميداني" هنا إلى" أن المدخل الوحيد الذي بدا مناسبا أمام "بيلمان نويل" هو: الإلحاح على ضرورة إهمال ذلك الدور الرئيسي للمؤلف في كل دراسة نقدية نفسانية، وبيوغرافية، فقد وجد في نفسه نفورا من تلك التعليقات، والأخبار، والصور، التي كانت ترسم للكتاب قبل الدخول إلى أعمالهم، ولذلك فهو لا يرى مانعا من اتخاذ موقف يلغي عند قراءة العمل الأدبي وجود الكاتب، فما أقرأه هو شيء يخصني مادامت أشتغل على الكلمات والجمل والصفحات والأجزاء"[1].

معنى هذا الكلام أن " جان بيلمان نويل" لم يعط أهمية لكاتب النص، بل ارتكز اهتمامه على ما في النص من كلمات وجمل، وما يتخلل هذا النص من فراغات، " فالنص الأدبي يحتوي

[1] لاشعور النص في استراتيجيات القراءة، مجلة قراءات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، د/ جمال ولد الخليل، جامعة نواقشوط ـ موريطانيا.ص64

على فراغات، وهي فراغات يمكن أن تصرخ بصمت، وفي ذلك تشبيه خفي لها بصراخ الغرائز من أعماق اللاشعور في حياة الإنسان".[1]

وبهذا يكون " جان بيلمان نويل" قد استفاد من نظرية التلقي وخصوصا من مفهومها الإجرائي الفراغات، ويعد هذا المفهوم جوهريا في نظريات القراءة والتلقي، ويعني أن النص يشتمل على مجموعة من الفراغات أو البياضات أو المواقع اللا محددة التي يتركها الكاتب عمدا، والتي يجب على القارئ أن يقوم بملئها وبالتالي التفاعل مع النص، إذ إن دور القارئ في النص حسب "إيزر" وأمبرتو إيكو" هو تفعيل تلك البياضات وملؤها. هكذا أخذ " بيلمان نويل " مفهوم الفراغات من نظرية التلقي وجعله أساس اشتغاله في الكشف عن اللاشعور النصي. فكيف تمثلت هذه الفراغات في سيرة" توفيق الحكيم "وإلى أي حد استطاعت الكشف عن لاشعور النص؟

يختلف لاشعور النص عن ذلك اللاشعور المعهود عند فرويد، فإذا كان اللاشعور الفرويدي يتمظهر في اللعب، الحلم، التخيل، وزلات اللسان ... فإنه ـ اللاشعور ـ يتمظهر مع "بيلمان" في شكل بياضات وفراغات كما سيأتي تبيان ذلك في نص "توفيق الحكيم". لقد جاء في نص توفيق الحكيم العديد من الفراغات نذكر منها ما استطعنا الاهتداء إليه. لنبدأ إذن بأول ما يطالعنا في النص يقول" هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة ... إنها تعليل وتفسير لحياة... إني أرفع فيها الغطاء عن جهازي الآدمي لأفحص تركيب ذلك "المحرك "الذي نسميه الطبيعة أو الطبع ... هذا المحرك المتحكم في قدرتي، الموجه لمصيري..."[2]

فهنا " توفيق الحكيم" يشير إلى المحرك المتحكم في قدرته بالطبع، وأي طبع يتحدث عنه؟ إنه لم يحدد في الحين، بل ترك الكلام يشتمل على بياض وفراغ حول ذلك الطبع، هل تكون هذا الطبع نتيجة لأشياء فرضت على شخصيته أم أنه هو الذي كونه؟ وكيف أثر هذا الطبع على قدرته؟ هذه الأسئلة هي بمثابة مواقع لا محددة يثيرها فعل القراءة، وعلينا نحن كمتلقين أن نقوم بملئها لكي نحدد لاشعور النص. ثم يقول " هذا الطبع الذي يسجننا طوال العمر"[3]

---

[1] نفسه.ص 64

[2] ، ط2، ص: 1.7 سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، ط

[3] نفسه، ص:7

إنها عبارة فضفاضة تحمل ما لا يحصى من الفراغات القابلة للتأويل والملء، والتي لا تنفد دلالتها مهما مر عليها من الزمن.

يقول أيضا: "لكن ما نفع ذلك والوالد في دمته أربع زوجات عدا المطلقات "[1]

إن "توفيق الحكيم" هنا لم يحدد عدد الزوجات المطلقات، بل ترك العدد مفتوحا، ولم يذكر السبب في تطليق جده لذلك العدد من الزوجات، زد على ذلك زواجه من أربع زوجات، بل اكتفى بقوله وله الحق في ذلك. مع ذكره كذلك أنه لم يجد الزوجة المناسبة لذلك كان في كل لحظة يطلق زوجة ويتزوج أخرى، والأمر في حقيقته أن "توفيق الحكيم "ترك للمتلقي أن يستنتج بنفسه ذلك العبث الذي أصبحنا نعيشه في مجتمعنا، ذلك أن الرجل يتزوج ولا يبالي بالحال الذي تصبح عليه الزوجة المطلقة، بل يطلق زوجته دون مبالاة.

ويقول "توفيق الحكيم": " وعشت هكذا في حرية تامة ... ما كان يمكن أن تتاح لي في كنف والدي ووالدتي، وتحت ضغطهما المستمر الذي كان سيحول قطعا دون ارتياد المسارح والانغماس في الحياة التي أريدها.[2]

يقر "توفيق" هنا بأنه عاش في حرية تامة ما كان سيحظى بها لوعا ش في كنف الأم والأب، لأن الحياة في ظل وجودهما تكون مضغوطة. تعود بنا هذه النقطة إلى المثلث الأوديبي الذي حدده "جورج طرابيشي " في سيرة توفيق الحكيم، وهو مثلث متساوي الساقين، قاعدته الأم وساقاه الأب والابن وما يساوي بينهما هو معاناتهما من اضطهاد القاعدة.

فتوفيق الحكيم لم يصرح كذلك بالاضطهاد الذي يعانيه الأب والابن من طرف الأم، بل ترك الأمر مفتوحا واكتفى بعبارة " ما كان يمكن أن تتاح لي في كنف والدي ووالدتي"

هذه فراغات من بين أخرى موجودة في سيرة " توفيق الحكيم"، انفلتت من هذا الأخير أوتركها عمدا تنفلت منه، وهاته الفراغات هي بمثابة تمظهر للاشعور النص، أي هي التي تكشف عن اللاشعور في النص. إن هذا الأخير "أثر خالص لا يظهر إلا في بعض أجزاء

---

[1] نفسه، ص: 23.

[2] سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، ط2، ص: 107 ،1.108 ، ط2

النص التي لا تنفد دلالتها، لأنها تنتج المعنى عند كل قراءة جديدة، فهو يشتمل كل القيم الدلالية التي يخفيها النص، والتي لا تطفح على السطح إلا عند كل قراءة."[1]

-خاتمة:

يمنح المنهج النفسي مجموعة من الإجراءات النقدية التي تساعد الباحث أو الناقد في استجلاء المضامين النفسية سواء من حيث العمل على تحليل نفسية المؤلف عبر إسقاط العقد النفسية الفرويدية عليه، أو تفسيره من منظور المثلث الأوديبي الذي يركز على حالة الأب والأم ثم الإبن ليعطينا دراسة كاملة عن حالة الأخير، وكامتداد في التحليل النفسي نجد أن دراسة اللاشعور الجمعي وحضوره في الكتابة يجعل الناقد النفسي يحيط بالمؤلف من جوانبه اللاشعورية سواء الفردي منها أو الجماعي.

أما حينما نتحدث عن الدراسة النقدية النفسية فإنه يتوجب علينا الغوص في اللاشعور النصي والذي مثله كل من جاك لاكان، شارل مورون، وجان بيلمان نويل؛ فهؤلاء ابتعدوا عن تلك الدراسة النفسية المتغلغلة فقط في أعماق المؤلف، بل تجاوزوها إلى استنطاق النص وجعله يبوح بنفسية صاحبه دون الوصول أو الاقتراب منه.

هذه الآليات المنهجية كان لها دور كبير في مقاربتنا للسيرة الذاتية " سجن العمر" للكاتب توفيق الحكيم كما أمدتنا بطرق إجرائية متنوعة كانت حجر الأساس في عملية التحليل والنقد الذي أنجزناه.

[1] لاشعور النص في استراتيجيات القراءة، مجلة قراءات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، د/ جمال ولد الخليل، جامعة نواقشوط ـ موريطانيا.ص64